أجملنا وأوّلنا

هو أجملنا وأولنا

(لا نريد لهذي القصيدة أن تنتهي)

مريد البرغوثي

لو تُرِكْتُ لنفسي لآثرتُ الصمت. بداخلي نوع من الحزن يخدشه الكلام. يخدشه العلَن، يخدشه البلل الذي لا يكاد يُلاحَظ على الخد. تخدشه المواساة ذاتها. حزن يرغب في الانسحاب بعيداً عن الصخب الذي دخل فيه من أحبك حياً، أو من انتظر غيابك ليحبك ميتاً كما حذّرت. بداخلي حزن يخصني كأنه الآن من مكونات قلبي، وليس مهماً أن أصفه لنفسي أو لمن أحب. كأنه سر يليق به الظن والظل، ويصونه الخفاء والإخفاء. لا أحب لأصابعي أن تلمّ حزمة الضوء من الهواء المحيط بكتفيك لتُسلِّطَها على خسارتي فيك وافتقادي لك. شِعرك هو المهم الآن لا الشِعر الذي يرثيك، شخصك هو المهم لا شخص الذي يبكي عليك.

***

كنت معه في تلك الظهيرة الحارة على تل يطل على مدينة رام الله، وهو مشغول بترتيب غرفته الأخيرة تحت التراب. سماء معلقة فوقنا كأنها سريرٌ طائرٌ مفروشٌ بالأزرق، يغري بالنوم العميق، تعبرها غيوم خجلى قصيرةُ العمر. الأعلام إلى جانب

مريد البرغوثي، شاعر فلسطيني يقيم في القاهرة.

صورته في كل مكان، صوته المَقْنِعُ يملأ فضاء المدينة.

القبر المفتوح ينتظر جسده الشاعر. الطرقات الصاعدة إلى التل تشهد موجة بعد موجة من البشر من كل الآراء والأعمار والقرى تحاول أن تصل إلى أقرب نقطة من غرفته الأخيرة المعدّة على عجل. الجليليون، والجليليات، جاءوا من الوطن الصعب إلى هذا التل الممكن، وهم الآن يحاولون أن يجدوا لهم مكاناً بين الآلاف المحيطين بآخر بيت سيسكنه محمود.

***

تحلقنا حول الحفرة المنتظِرة، وجدت نفسي بجوار «حورية» التي سوف يتغير على شفتيها مذاق خبزها وخبزه منذ اليوم، جاءت في عربة إسعاف، وجلست في كرسيها المتحرك لتلقي النظرة الأخيرة على ولدها الشخصيّ. عندما اكتشفَتْ صعوبةَ انتصار الحقيقة على المجاز سمعتها تقول في تسليمٍ نبيل: «محمود ابنكم كلكم. محمود ابن الجميع».

أكان لا بد من هذا الوداع الأبديّ للّقاء أيتها الأم الحزينة لأعرف من أين استمد الضوء صفاته؟ وأروع ما في صفاته أنها صفات بشرية مقيمة داخل جسد يحيا ويموت، يصيب ويخطئ، يذكر وينسى، يحب ويندم، وقد يكتب قصائد ثم يندم لنشرها، يتجاور فيه الضعف الإنساني مع القوة الإنسانية مع الحيرة بينهما، في بلاد لم تتعود الرأفة بسكانها.

وأنا واثق أن ما يسره الآن، حقاً، هو اعترافنا بجماله البشري، وما يسيء إليه حقاً هو سهولة تصنيمه وتقديسه. هو عالٍ كإنسان وعالٍ كشاعر ومن أراد أن يقترض له علوّاً لا بشرياً فهو ينكر علوّه الحقيقي بيننا على هذه الأرض. تهذيبه تهذيب قصيدة حُذِفَتْ زوائدُها حتى استقرت على صفحة الكتاب، وعلى صفحة القلب صافيةً من غير سوء.

تألقه برقُ نظرةٍ رأت فجأة من تشتهي أن ترى. ترفّعه ترفّع زهرة عن لوم النحل. بعض سلوكه إعادة تعريف للكبرياء وبعض خشونته حياؤه كله. محمود ابن الجميع نعم. وهذه العائلة من فرط الحياء بدت وكأنها تعتذر عن وجودها في زحام محبي

ولدها الذي جعل شعباً محاصراً، مضحياً، بطلاً، مقيماً، لاجئاً، منتفضاً، خاسراً، رابحاً، متفائلاً، متشائماً، صابراً، يجتمع حول كلامه وحول جماله.

يا له من حرج لأولئك الذين يتهمون الفلسطينيين بالإرهاب والقسوة. ها هم الفلسطينيون يصعدون التل بالآلاف حاملين بأيديهم قصائد، وسنابل، وزهورا ورايات وشموعاً ليكرّموا مَنْ؟ ليكرّموا شاعراً تطير في سطوره الفراشات، والنحل، والحمام، والأساطير. يكرّمون موسيقاه بكمنجاتها، ودفوفها، ولهجته، بغامضها وواضحها، وطلّته بهيبتها وطفولتها، ونقوشه الغامقة والفاتحة.

صبية ترسم صليباً وصبية تقرأ الفاتحة. إنهم يصعدون التل من أجل الجمال الذي في الشعر والشعر الذي في الجمال. هذا ليس مديحاً لهم فقط بل هو أيضاً مديح للشعر الساري في تاريخهم ولمكونات ذاكرتهم، وهو مديح لشاعرهم الذي أثبت لهم بتجريبه المضني قيمةَ الجمال الذي فيهم وفيه، وقيمة الشعر وفتنتَه، إنه مديحٌ لقوة الخلق في وطن هو وطن الأسلوب. وطنٌ كنتُ وصفتُه ذات قصيدة قديمة كأنه «شيخ تعوّدَ فقدَ البنين، شامخ وحزين».

قلت هاهم الفلسطينيون يرتعشون أمام حفيف قصيدة وقد يرتعشون أو لا يرتعشون أمام هدير دبابة. وهم نفس الناس الذين ازدحم بهم ملعب رياضي في بيروت قبل سنوات قليلة ليستمعوا إليه، كأنهم بذلك يردون على قبح الاحتلال، وقبح الطغيان. قصة الفلسطينيين منذ النكبة هي قصة العطش للتعبير عن وجودهم في المكان ووجودهم في الوقت، العطش لقول الذات واسترداد إنسانيتهم المطعونة بخطايا العدو، وأخطاء الذات ذاتها، وتوقُهُم لتغيير عالم ملتبس الجدوى.

وهم استطاعوا رغم الاحتلال والدكتاتورية، أن يعبّروا عن أنفسهم سياسياً بالمقاومة، وثقافياً بالأغاني والرقص الشعبي والنحت والرسم والبحث والرواية والتطريز والمشغولات اليدوية والذاكرة والقصائد. وهم يعلمون أن إبداعاتهم هذه لا تصون وجودهم فقط بل، وهذا هو الأهم، إنها وسيلتهم لحماية أنفسهم من السقوط في رثاثة الشفقة، ورثاء الذات والعواطفية السهلة.

وهذا ما يفسر ذلك التعاقد الشفهي الثمين بين العديد من أفضل المبدعين

الفلسطينيين والعرب وجمهورهم. ودرويش أعطاهم ما يتوقعونه من هذا التعبير عن الوجود محاولاً باستمرار أن لا يتخلى عن القانون الجمالي للشعر، كما يطمح إليه. منذ فترة طويلة، انسحب محمود من التنظيم الحزبي ومن الوظيفة السياسية ومن مجلته «الكرمل»، ومن زيجتين قصيرتين خلتا من الإنجاب، وفي التاسع من أغسطس ٢٠٠٨ عاد شعراً صافياً كما أحب دائماً أن يكون. كأنه في كل ما فعل، أو لم يفعل، لم يراهن إلا على الشعر. لكن حتى محمود كان عليه أن يصل إلى استنتاجه الحزين عندما قال ذات يوم:

«اعتقدت أن الشعر قادر على تغيير كل شيء. تغيير التاريخ وأنسنة الإنسان، لكني الآن أعتقد أن الشعر لا يغير إلا الشاعرَ ذاتَه.»

هذه المرة أخطأ الشاعر. هذا شاعر استطاع أن يغير لغة اللغة. هذا شاعر استطاع أن يغيّر صورة الصورة. حتى المظهرُ الجسديُّ الشائع للمقهور والضحية واللاجئ كان عليه أن يتراجع أمام اعتداده السامي وأناقة مظهره، وأناقة حضوره، وأناقة لغة التخاطب لديه.

***

حيّرني في المجالس. أراه، كلما ضمّنا بيت، أو مكان في أي بلد من بلدان الدنيا، وكلما كنت ضيفه أو مضيفه، شاعراً، له حضور الجّد المهاب، بينما، كشخص، له حضور الحفيد الهش، كأنه أصغرِ أبناء العائلة الذي يغرينا بفعل أي شي لحمايته من الأذى.

هو أجملنا وأولنا، هو سبب اطمئناني رغم الجروح المزمنة في ثقافتنا التائهة في الطرقات: يطمئنني على شعرنا العربي خوفه القلق من قصيدته وشكه العفيّ في هداياه للغة البلاد. يطمئنني ذكاؤه الشَّفرة على أن الغبيّ لا يمكن أن يكتب قصيدة. تطمئنني ياقة قميصه على أن الرثاثة ليست من شروط الشعراء، يطمئنني حياؤه على أن الطفولة تحفظ جواهرها في صندوق بهيّ منقوش بسبع وستين دهشة من السنوات أو أكثر قليلا، كل سنواته طفولاتٌ تطمئنني على أن الحاقد المحتقن لا مكان له في مملكة الشعر أو النثر.

تطمئنني قسوته على نفسه بعد كل كتاب يكتبه أن من كنا نمنحهم لقب « الشاعر السعيد » من نشطاء الترويج للذات، هم أمراض شعرية لا دواء لها، وتطمئنني ذائقته النقدية على رأينا المشترك في مؤسسة النقد الأدبي المريضة بأخطاء الإملاء، وغباء السهولة، وتسميع محفوظات مترجمة بلا كفاءة.

يطمئنني مكر المعنى في قصائده على أن شعر الهذيان الذي شكى منه لن يعمر طويلاً، لكن أكثر ما يطمئنني أن الناس ستواصل قراءة أشعاره خلافاً لحظ عديد من الشعراء الذين أخذوا قصائدهم معهم إلى القبر. فالقبر لن يأخذ من محمود إلا ما سمح به محمود.

في اليوم التاسع من شهر آب صعد الشاعر إلى جداريته ليرتاح هناك. لم يعهد لأحد برثائه، جلس في حضرة غيابه، ورثى نفسه بنفسه، لا ليعفي أحداً من المهمة، بل لأنه يخشى الركاكة في القول والفعل، حتى ركاكة من أراد التعبير عن حبه له. أنا سأصدق طبيبه الذي أعلن النبأ، وشرح أسباب الوفاة التي قهرت جسده هذه المرة، لكن الشاعر، سيد الكلام وسيد اللغة، قهرته أيضاً ركاكةُ القيادات الركيكة، المتحاربة داخل حفرة الاحتلال السعيد بما يرى، والساسةُ الذين يخجلون من توحدهم كأنه عار، ويتباهون بانقسامهم كأنه شرف.

وأيضاً، وقبل هذا وذاك، قهرته ركاكةُ النظام العربي الخائف من النصر والمولع بطاعة الغزاة. فبأيديهم جميعاً معاً زاغت الأشياء عن أسمائها ونأى عن اسمه كل مسمّى، صار للموت الذي يطلبنا عشرين اسما. بأيديهم جميعاً أصبحنا نرى ما لا نريده نحن، وما لا يريده محمود: أوشكت الصفات أن تخفي الموصوف، وأوشكت القضية الجائعة للنصر أن تلتهم معناها كله.

أعلم كم كان كمده حقيقياً وهو يرى هذا الاقتتال الجامح من أجل سلطةٍ مشلولةٍ. قال لي ولكثيرين من أصدقائه إن العملية الجراحية التي ينوي إجراءها تنطوي على احتمال الشلل، وأنه أخبر طبيبه أنه يفضل الموت على الشلل. في التاسع من شهر آب. مات الشاعر، واليوم على الشعب الفلسطيني أن ينهض من جديد ليشفي القضية الفلسطينية من الشلل الذي أصابها بفعل سياسات مرتجلة تتبرع بالحمق

تبرعاً، وتوقظ الشفقة من نومها.

على التل المطل على مدينة رام الله، الناس الذين تدافعوا بالآلاف حاملين شموعاً أو وروداً أو سطوراً من شعره في أيديهم وعلى قمصانهم، هم الذين جعلوا وداعه وداع شاعر كما يليق به أن يكون، لا وداع موظف كبير لدى السلطة كما أرادت السلطة له أن يكون، وداع عضو لجنة تنفيذية مثلاً ، لتتباهى في حمّى الانقسام أنه من صفوف السلطة هنا لا من صفوف خصومها "هناك". أرادت السلطة أن تحتفل بماضيه بينما خرج الناس للاحتفاء بمستقبله، واثقين وأنا واثق مثلهم، أن الشاعر الحقيقي هو الذي يصطحب قصائده إلى كل مكان فوق الأرض، لا تحتها.

نسي محمود قصائده بحوزة سيد يعرف كيف يصونها ويحميها اسمه التاريخ، وبصحبة سيدة لا تطيق الاحتفاظ إلا بأجمل الشعر اسمها الحياة، نسي قصائده في أدراجنا ورفوفنا وقلوبنا وأسماعنا، حية عفية قوية القلب، وبصحة جيدة.

ومحمود يعرف أنه لم يأت إلى الشعر من غيمة عابرة فوق أرض جرداء، بل من ثقافة أمة ولغة وأرض، وهذه كلها لم تكن صفراً ثقافياً قبله، ولن ترتد إلى صفر ثقافي بعده. ويسيء لفلسطين وثقافتها كل من يظن أنه ليس بوسعه تمجيد محمود درويش إلا إذا حكم على الثقافة الفلسطينية كلها بالعقم والفراغ.

وعلى من يريد إنصاف الرجل، وإنصاف فلسطين، ألا يصوره كنتوء طارئ في تاريخ البلاد وأنه بغيابه سيترك بلداً قاحلاً. ولنتذكر، وهذا لا ينبغي أن يفاجئ أحداً، أن بعض من يصدر الفتاوى الشعرية من السياسيين لم يقرأوا شعره ولا شعر غيره.

وتظل الحقيقة المؤكدة أن محمود عندما نثر شعره على هذه الأرض أحاط بهمها، وحلمها، وأسطوريتها، وعاديتها، وأصبحت لغات العالم تتناقل صوته، فلم يكن غريباً أن نستقبل تحت الحصار منذ أعوام قليلة عدداً من أفضل كتاب العالم، في رام الله، جاءوا من كل القارات تضامناً معه شخصياً ومع حصاره وحصار شعبنا.

وعندما بكاه أبناء البروة الملمومة كغرة حصان في الجليل بكاه كثير من مثقفي العالم أيضاً على امتداد القارات الخمس، لا لأنه شغل هذا المنصب أو ذاك، بل لأنه

شاعر حقيقي من شعراء الكون، وإنسان جميل في عالم كثرت فيه الدواوين وقلَّ الشعراء. والشاعر ليس عدداً من الكتب على الرف، بل إنسان لا يشبه بضاعة البشر في الأسواق، إنه من يعنيك معرفة رؤيته للذات والتاريخ والوقائع ونفوس البشر وقيم الجمال والقدرة على كتابتها بإمتاع وكفاءة.

القارئ لا يعنيه ديوان يصدر لشاعر يُشترى ويُباع بل يعنيه من لشخصه ورأيه ورؤيته وروايته قيمة. والقارئ يعرف أن محمود درويش ليس قديساً، وليس معصوماً، وأنه أصاب وأخطأ وأن إرثه الباقي سوف يقرأ من قبل الدارسين في سياق حقبة من التاريخ العربي والفلسطيني، ودور المثقف فيها، لكن رأي محمود كان دائماً محل اهتمام الملايين، بفضل شعره وبفضل شخصه معاً. وعلى القارئ أن يعرف قبل ذلك وبعده أن محمود كان يتبع حدسه وقلبه وكان ينظر في مرآته فيرى نفسه، ويرى المِرآة أيضاً، ويقول لك متى سوف تنكسر، ومتى يجب أن تمتد يد ما لمسح غبارها، ومتى عليك أن تحتضن كسورها، ومتى تحتضن الحياة مثل قطة، أو مثل قيثارة، وتنشد مرحباً بالصباح «هل يموت بهذا النهار أحد؟»

***

في التاسع من شهر آب ٢٠٠٨ تكررت قصيدته التي كتبها قبل عشرين عاماً ويوم جنازتيه في عمان ورام الله كتبَت القصيدةُ نفسَها في هواء المدينتين لأنه رأى فيها بعض ما وقع:

رأيت الوداع الأخير: سأودَع قافية من خشبْ
سأُرفع فوق أكفّ الرجال، سأُرفع فوق عيون النساء
سأُرزَم في علَم، ثم يُحفظ صوتيَ في عُلب الأشرطة
ستُغفَرُ كل خَطاياي في ساعةٍ، ثم يشتُمُني الشعراءْ
سيذكر أكثر من قارئٍ أنني كنت أسهر في بيته كل ليلة.
ستأتي فتاة وتزعم أني تزوجتها منذ عشرين عاماً.. ونيّف
ستروى أساطير عني، وعن صدف كنت أجمعه من بحار بعيدة
ستبحث صاحبتي عن عشيق جديد تخبئه في ثياب الحداد

سأبصر خط الجنازة والمارةَ المتعبين من الانتظار.
ولكنني لا أرى القبر بعدُ. ألا قبر لي بعد هذا التعب؟

كانت هذه من ديوانه «ورد أقلّ» حيث تكتب نفسها من جديد قصيدته المفتوحة العينين على تعب سوف يأتي، وأتى. وها نحن فيه:

هنالك ليل أشدّ سواداً.. هنالك وردٌ أقلُّ
سينقسم الدرب أكثر مما رأينا،
سينشق سهلُ
وينهدّ سفح علينا، وينفضُّ أهلُ
سيَقتُل فينا القتيلُ القتيلَ
لينسى عيونَ القتيل... ويسلو

وكأي شاعر حقيقي ها هو يمارس تناقضه الفاتن والضروري عندما يبعث للروح أحذية ويجعل الأجيال رغم عثرتها المزمنة تركض في دنياها الغامقة، وهي تخبر موتها بقوة:

«على هذه الأرض ما يستحق الحياة».

وأنا عندما أتأمل السياسيين والقادة في هذه القارة العربية العظيمة والحزينة، الحكام الذين «أطاعوا رومهم» أود لو أضيف من عندي:

«على هذه الأرض من يستحق العقاب».

نُشرت صيغة أولية لهذه المقالة في جريدة الغارديان البريطانية